

الفصل الخامس

وسطية القرآن في أنبياء الله ورسله

تمهيد: لقد كان من أعظم نعم الله ﷻ على عباده أن بعث فيهم رسلاً منهم يعرفون نسبهم وأخلاقهم، اختارهم من خيارهم واصطفاهم من أوسطهم مكانة ونسباً، يدعون قومهم إلى خير ينفعهم في دنياهم وأخراهم وينهونهم عن كل ما فيه هلاكهم وضررهم في دنياهم وأخراهم، يدعونهم إلى عبادة الله وحده واتباع أوامره واجتناب نواهيه ويحذرونهم من الشرك بالله ومعصيته، ومخالفة أوامره وارتكاب نواهيه - فما من أمة إلا خلا فيها نذير، وبعث إليها رسلاً أو رسولاً، وذلك رحمة من الله بعباده، ولئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، يقول في ذلك تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبُّوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ۝﴾ (النحل: ٣٦).

ويقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا وَإِسْمَاعِيلَ وَأَرْسَلْنَاكَ فِي كُلِّ قَلْبٍ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾ (النساء: ١٦٣ - ١٦٥).

فبين سبحانه أنه أرسل رسله إلى عباده مبشرين ومنذرين، فمن عصاهم فله أليم العذاب والعقوبة، لئلا يحتج من كفر بالله وعبد الأنداد أو ضلَّ عن سبيله بأن يقول إن الله أراد عقابه:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝﴾ (طه: ١٣٤).

ولقد بلغ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ما أرسلوا به، ونصحوا لأممهم غاية النصح، وبينوا لهم أوضح بيان وأجله، ما يجب عليهم في دينهم ودنياهم، وما أعد الله لأهل طاعته من ثواب، وأهل معصيته من عذاب، وسلخوا في تبليغ قومهم رسالات ربهم كل مسلك فدعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً ولم يسألوهم على ذلك أجراً، بل تحملوا في سبيل نصحتهم وهدايتهم ألوان الشدائد وضروب المتاعب والأذى^(١).

ولقد تباينت مواقف الأمم تجاه أنبيائهم ورسولهم، ما بين مؤمن بهم متبع لهم، وبين كافر بهم مؤذٍ لهم، وبين غال فيهم منزل لهم فوق المنزلة التي أنزلهم الله إياها، وفي هذا المبحث سنعرض لموقف اليهود والنصارى والمسلمين في أنبياء الله ورسله. وإنما اخترنا هذه الأمم من بين سائر الأمم، لكونها أكثر الأمم أنبياء ورسلاً، ولكونهم أهل كتب سماوية نزلت إليهم، ولكونهم آخر ثلاث أُمم أرسل إليها رسل أدرك بعضها بعضاً.

المبحث الأول

موقف اليهود من أنبياء الله ورسله

لقد كان لليهود من أنبياء الله ورسله مواقف شائنة مخزية تنبئ عن خبث في الطوية، وفساد في السيرة والسريرة، واتباع للنفس والهوى، وإعراض عن الحق والهدى. وإذا نحن أجلنا النظر في كتاب الله ﷻ، تحصل لنا أن مواقف اليهود من رسل الله تتلخص في الأمور التالية:

الأمر الأول: أنهم فرقوا بين رسل الله ولم يؤمنوا بهم جميعاً؛ بل آمنوا ببعض وكفروا بالبعض الآخر (بمجرد التشهي والعادة، لا عن دليل قادم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصية)^(٢).

ومن أعظم الرسل الذين كفروا بهم وكذبوا برسالتهم، عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، على أنهم كذبوا وكفروا بأنبياء آخرين غيرهما بدليل قتلهم لكثير من أنبيائهم كما سيأتي، وقد عد الله من يؤمن ببعض الرسل ويكفر بالبعض الآخر كافراً، بل هو الكافر حقاً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ

(١) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٩٦/٢).

وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ (النساء: ١٥٠ - ١٥١).

قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ يعني أنهم يقولون نصدق بهذا ونكذب بهذا، كما فعلت اليهود في تكذيبهم عيسى ومحمد ﷺ وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم، وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمداً ﷺ وتصديقهم عيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم^(١).

الأمر الثاني: أنهم خذلوا أنبياءهم ولم يقوموا بنصرهم، وقد أخذ الله عليهم ميثاقهم لينصرهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ١٢).

قال الحافظ ابن كثير: (أي: نصرتموهم وآزرتموهم على الحق)^(٢). فلم يفوا بميثاقهم، وما لبثوا أن قالوا لموسى ﷺ لما قال لهم: ﴿يَقْوِرْ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٢١) ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة: ٢٢).

ثم ما لبثوا أن أعلنوا خذلانه، وعدم القتال معه، وخلوا بينه وبين عدوه ف: ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَيْدَا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) فكان جزاؤهم التيه في الأرض أربعين سنة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٦).

الأمر الثالث: أنهم تنقصوا بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورموهم بارتكاب كبائر الذنوب، وألصقوا بهم كل رذيلة ومن ذلك.

١ - ما نسبوه إلى هارون ﷺ من أنه صنع لهم العجل، الذي عبده من دون الله

(١) جامع البيان (٣٥١/٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦٢/٣).

جاء في (سفر الخروج):

(ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: ثم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وبناتكم وآتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلًا مسبوكًا، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال: غداً عيد للرب فبكروا في الغيد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب^(١).

هكذا يصور هذا السفر نبياً عظيماً من أنبياء الله بعثه ليدعو الناس إلى توحيد الله - في صورة صانع للأصنام، مغر لقومه بعبادته من دون الله ﷻ. ونحن نقطع بأن هذا النص مما كتبه اليهود بأيديهم، وقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله، وإنه (ليدل على أن محرري هذه الأسفار لا يراعون لأنبيائهم حرمة ولا يرجون لهم وقاراً ولا يتورعون عن أن ينسبوا إليهم أية نقيصة حتى خيانة الرسالة نفسها التي بعثوا من أجلها ودفع قومهم إلى الشرك بالله)^(٢).

ولقد ذكر الله في القرآن الكريم قصة عبادة اليهود للعجل، وبين أن الذي صنع العجل وأغراههم بعبادته هو السامري وليس هارون ﷺ؛ بل أخبر ﷺ أن هارون ﷺ حذر قومه من ذلك ولكن القوم لم يلتفتوا إلى تحذيره وعصوه، وخالفوه إلى ما نهاهم عنه فقال ﷺ: ﴿وَمَا أَغْوَيْنَاكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّىٰ﴾ (٢٧) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَنْزِلْ عَلَيَّ رِزْقِي رَبِّ لِيَرْزُقْنِي رَبِّ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٢٨﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَبْعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٢٩﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٣٠﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٣١﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم سفر الخروج، الإصحاح (٣٢)، فقرة (١ - ٦).

(٢) انظر: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، للدكتور علي عبد الواحد، (٤٦).

وَلَا يَمَلِكُ لَكُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَكُمْ هَٰؤُلَاءِ مِنْ قَبْلُ يَقُولُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَالْيَعُونِي وَالْيَعُونِي أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ (طه: ٨٣ - ٩١).

فهذه الآيات تنطق في وضوح ببراءة هارون عليه السلام مما نسب إليه اليهود، وتشهد بافترائهم وكذبهم وتقولهم على الله ﷻ ورسله ألا بثس ما يزرون. ورموا نبي الله الأواب سليمان عليه السلام بأنه في أواخر أيامه مال إلى ممالة نسائه على عبادة الأوثان وبنى لآلهتهن المعابد وأن قلبه مال معهن إلى هذه الآلهة ولم يكن ذلك مخلصاً في إيمانه بربه ﷻ وتجد ذلك في (سفر الملوك الأول) من كتبهم المقدسة^(١).

فهذا سليمان النبي الكريم الذي لم يقر ملكة سبأ وقومها على عبادة الشمس والقمر من دون الله، وبذل ما في وسعه لهدايتهم إلى عبادة الله رب العالمين، فأظهر لها من آيات الله التي آتاه ما حدا بها إلى الهداية والإسلام فقالت: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﷻ﴾ (النمل: ٤٤) ومع ذلك ينسب إليه اليهود الميل إلى عبادة الأصنام والإذعان لرغبة نسائه في ذلك، سبحانه اللهم هذا بهتان عظيم.

٢ - نسبتهم لبعض الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام شرب الخمر وارتكاب فاحشة الزنى والقتل، فنسبوا إلى أبي الأنبياء نوح عليه السلام أنه شرب الخمر حتى سكر وثلّم وانكشفت سوءته ذكر ذلك في (سفر التكوين)^(٢) هكذا يصور كتاب اليهود المقدس نوحاً عليه السلام الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، في صورة فاسق لا يفيق من السكر، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ونسبوا إلى نبي الله لوط عليه السلام الزنى بابنتيه، فقالوا: إن ابنتيه تأمرتاه عليه وأسقتاه خمرًا حتى ثلّم وزنى بهما وحملتا منه، ذكر ذلك في سفر التكوين^(٣). وهذا نبي الله الملك الصالح داود عليه السلام تنسب إليه التوراة المزعومة الزنى بإحدى زوجات قائد من

(١) انظر: سفر الملوك الأول، إصحاح (١١) فقرة (٤ - ١٠).

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٦٦).

(٣) انظر: سفر التكوين، الإصحاح (١٩)، فقرة (٣٠ - ٣٧).

قواد جنوده فخشي افتضاح أمره فاحتال بقتله، وتزوج امرأته من بعده ثم ذكروا أن داود طلب عودة أوريا زوج المرأة المزعومة من المعركة ليقيم مع زوجته، في محاولة من داود لإخفاء جريمته ونسبة الحمل لأوريا، ولكن أوريا لم يدخل على أهله، ولما ينس منه داود كتب إلى قائده يأمره بأن يجعل أوريا في مقدمة الجيش والتراجع عنه عند اشتداد الخطر ليهلك، ذكر ذلك في (سفر صموئيل الثاني) (١).

فانظر رحمك الله كيف صوروا نبياً كريماً بهذه الصورة المزرية، فلم يكفهم نسبة الزنى إليه، حتى جعلوه متأمرأ على القتل، بل أمرأ به (٢).

الأمر الرابع: أنهم قتلوا بعض أنبيائهم:

لقد سجل الله عليهم في القرآن الكريم هذا الموقف المشين من أنبيائهم في غير ما آية، مقرأ لهم وموبخاً على هذا الصنيع القبيح، والجرم العظيم الذي ارتكبه به بحق من أرسل لهدايتهم وبعث لإرشادهم إلى صراط الله المستقيم، من أنبياء الله ورسله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ أَتَكْتَبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة: ٨٧).

وقال ﷺ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (المائدة: ٧٠) فاستجلبوا بهذا الموقف المخزي غضب الله ﷻ ومقته وسخطه واستوجبوا عذابه ونقمته: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِي مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ (البقرة: ٦١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧١﴾﴾ (آل عمران: ٢١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، ثم يقيمون سوقاً بقتلهم في آخر الزمان) (٣). ومن أعظم الأنبياء الذين قتلهم زكريا وابنه

(١) سفر صموئيل الثاني: إصحاح (١١) فقرة (١٤ - ١٦).

(٢) انظر: وسطية أهل السنة، (٢٦٨).

(٣) انظر: ابن كثير في تفسيره (١٤٦/١).

يحيى عليه السلام، فقد أخرج الحاكم^(١) عن ابن عباس عليه السلام في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١).

بعث عيسى ابن مريم في اثني عشر رجلاً من الحواريين يعلمون الناس فكان ينهاتهم عن نكاح ابنة الأخ، وكان ملك له ابنة أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضي لها كل يوم حاجة فقالت لها أمها: إذا سألك عن حاجتك فقل لي: أن تقتل يحيى بن زكريا، فقال لها الملك: ما حاجتك؟ فقالت: حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا فقال: سلي غير ذلك فقالت: لا أسأل غير هذا، فلما أتى أمر به فذبح...).

وذكر الإمام ابن جرير^(٢) وغيره قتل بني إسرائيل زكريا عليه السلام كما قتلوا ابنه يحيى، وقد أجمعوا على قتل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ولكن الله حفظه من كيدهم، ورفعهم إليه، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدون أنهم قتلوا المسيح عليه السلام، كما ذكر ذلك عنهم الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) (النساء: ١٥٧-١٥٨).

ويبدو أن هذا الخلق ظل ملازماً لهم تجاه أنبياء الله ورسله، ولم يكن ذلك منهم مع أنبيائهم فقط، فقد حاولوا قتل نبينا محمد ﷺ، فدسوا له السم صلوات الله عليه وسلامه بغية قتله، وحاول بنو النضير اغتياله بإلقاء الصخرة عليه^(٣) جرياً على عادتهم في الخبث والكيد لرسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: «إن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها فجاء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردت لأقتلك قال: «ما كان الله ليسلطك على ذاك - قال - أو قال: عليّ» قال: قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» قال: فما زلت أعرفها في لهوات^(٤) رسول الله ﷺ^(٥). وتشير بعض الروايات إلى

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري توفي سنة (٤٠٥هـ) من أكبر علماء الحديث.

(٢) انظر: جامع البيان، (٢٨٤/٦).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة (١٩٠/٢).

(٤) لهوات: جمع لهاة وهي اللحمة في سقف أقصى الفم.

(٥) البخاري: كتاب الهدية، باب قبول الهدية من المشركين، (٣٢٠/٥) رقم الحديث (٢٦١٧).

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مع غلوهم في بعضهم كالعزيز عليه السلام، فإن النصراني قد ذهبوا إلى أقصى الطرف المعاكس فغلب عليهم الغلو والإفراط ولا سيما في نبي الله عيسى عليه السلام، على أنهم فرطوا وقصروا أيضاً في حق الله؛ بل وفي حق عيسى عليه السلام أيضاً، ويمكن إجمال مواقفهم في هذا الباب في الأمور التالية:

الأمر الأول: أنهم لم يؤمنوا بجميع الرسل والأنبياء، بل فرقوا بينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وغلوا في بعض، وهم معنيون أيضاً بقوله ﷺ: ﴿إِنَّ الْأَدَبَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ (النساء: ١٥٠-١٥١) وقد مرنا إيراد هذه الآية في الكلام على موقف اليهود، وذكرنا ما قاله الإمام ابن جرير في تفسيرها، وفيه أن النصراني ممن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، حيث آمنوا بعيسى وموسى بزعمهم وكفروا بمحمد ﷺ.

الأمر الثاني: أنهم غلوا وأفرطوا في نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، ورفعوه فوق المكانة التي جعله الله فيها، وأنزلوه فوق المنزلة التي أنزله الله إياها. فلم يؤمنوا به عبداً لله ورسولاً نبياً، وإنما جعلوه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة يشككون منها الإله، وعبدوه من دون الله ﷻ وأضافوا إليه من الأفعال والأعمال ما لا يصح إضافته ونسبته إلا إلى الله ﷻ، فكانت عقيدتهم فيه التي أجمعوا عليها بعد (مجمع نيقية)^(١). وسموها بـ(الإمامة) على النحو التالي:

١ - الإيمان بإله واحد، أب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض صانع ما يرى وما لا يرى.

٢ - وبرب واحد يسوع، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد في روح القدس ومن مريم العذراء، وصلب حياً على عهد بيلاطس وتألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس على

(١) سمي بذلك نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال إسطنبول التي اجتمع بها عدد من علماء النصراني، وكان من أهم قراراته القول بالهية المسيح ﷺ. انظر: النصرانية لأبي زهرة (١٢٤)، وانظر: ابن القيم، هداية الحيارى (٣٢٣).

يمين الرب وسيأتي ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه...^(١).

لقد ذكر القرآن الكريم غلوهم في عيسى ﷺ، وقولهم بالوحيته وبنوته لله ﷻ، وكفرهم بذلك، فقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلُثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٣).

وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَسَاءَ لَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّكَونَ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة: ٣٠).

وورد في بعض الأناجيل بعض النصوص التي اعتمد عليها النصارى في تأليه المسيح وبنوته، ومن ذلك ما جاء في إنجيل (يوحنا) كقوله: (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة لله هذا كان في البدء عند الله، كل به كون وبغيره لم يكون شيء مما كون)^(٢).

فجعل المسيح هو الكلمة، وجعل الكلمة هي الله، فالمسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وفيه أيضاً أن المسيح ﷺ أبرأ أعمى فردّه بصيراً، وأن اليهود لما سألوه من رد إليك بصرك أخبرهم بذلك ووعظهم فطردوه، وسمع يسوع أنهم طردوه خارجاً فلقيه وقال له: أتؤمن أنت بابن الله؟، فأجاب وقال: ومن هو يا سيدي لأؤمن به؟، فقال له يسوع: قد رأيته وهو الذي يكلمك، فقال له: قد آمنت يا رب وسجد له^(٣).

على أن في هذا الإنجيل وغيره من الأناجيل من التناقضات في هذا الباب الكثير، بل فيه ما يدل على بشرية المسيح وعبوديته وأنه نبي وليس من غرضنا هنا ذكر ذلك، وإنما القصد الإشارة إلى قولهم بالوحيية المسيح وبنوته لله ﷻ^(٤).

(١) انظر: الأسفار المقدسة (١١١)، الملل والنحل (٢٨/٢) للشهرستاني.

(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، فقرة (١ - ٤).

(٣) إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع، فقرة (٣٥ - ٣٧).

(٤) متى، الإصحاح السادس والعشرون، فقرة (١٤ - ٥٧).

الأمر الثالث: خذلانهم لنبيهم وعدم نصرته، إن من الواجب على اتباع الرسل وخاصة أصحابهم وحواريهم، أن ينصروهم ويعزروهم ويفدوهم بأنفسهم وأموالهم كما تقدم ذكر أخذ الله ميثاق بني إسرائيل على نصر الرسل ومؤازرتهم. ولكن قوم عيسى عليه السلام، وتلاميذه خذلوه ولم ينصروه عندما أراد أعداؤه اليهود أخذه وقتله، بل أسلمه بعضهم ودل عدوه عليه لولا أن الله رفعه وألقى شبهه على بعض تلاميذه.

وقد أثبت النصارى أن تلاميذ المسيح وأصحابه أسلموه لليهود وخلوا بينهم وبينه وقبض بعضهم ثمناً لذلك، وهذا غاية الخذلان ذكر ذلك في إنجيل متى^(١).

المبحث الثالث

موقف المسلمين من أنبياء الله ورسله

ينبع موقف المسلمين في هذا الباب من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، منهما تستقي هذه الأمة مواقفها واعتقاداتها وسائر أمور دينها وعنهما تصدر، لذلك جاء موقفهما من أنبياء الله ورسله موقفاً معتدلاً وسطاً، لا غلو فيه ولا إفراط ولا تفريط أو تقصير فيها، ولم تضل فيه كما ضلت أمم قبلها؛ لأنها لم تقل فيه بمجرد الرأي والهوى، ولم تبتدع فيه ما لم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ.

الأمر الأول: أن هذه الأمة آمنت بجميع الأنبياء والمرسلين ولم تفرق بين أحد منهم فتؤمن ببعض وتكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى، ذلك أن الله ﷻ أمرها في كتابه الكريم بقوله: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِنْزِيلًا وَنَسْتَعِيزُ بِالْحَقِّ وَنَعْتُوبُ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم...)^(٢).

(١) متى، الإصحاح السادس والعشرون، فقرة (١٤ - ٥٧).

(٢) تفسير القرآن الكريم (١/ ٢٧١).

وقال قتادة: (أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بأنبيائه ورسله كلهم ولا يفرقوا بين أحد منهم)^(١).

وَعَدَّ الرسول ﷺ الإيمان بالرسول أحد أركان الإيمان الستة التي لا يكون المرء مؤمناً إلا إذا استكملها، فقال ﷺ في حديث جبريل المشهور: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(٢).

فرسم القرآن الكريم لهذه الأمة طريقة الاستقامة فاستجابت لأمر الله ورسوله وآمنت برسل الله جميعاً، وشهد الله لها بهذا الإيمان في محكم كتابه فقال: ﴿وَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وبلغ من عمق إيمانها برسل الله وتصديقها لهم، أنها تشهد لهم على أمهم بالبلاغ، كما تقدم في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليهم شهيداً»، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۝﴾ (البقرة: ١٤٣)^(٣).

الأمر الثاني: أنها لم تنتقص أحداً منهم، كما فعل غيرها من الأمم، بل وقرتهم وعزرتهم ونصرتهم، ونفت عنهم كل ما يقدر في أشخاصهم أو نبوتهم ورسالتهم، وأثبتت عصمتهم من الكفر، وارتكاب الكبائر قبل الرسالة وبعدها، وفي الصغائر خلاف، والجمهور على عصمتهم من تعمدتها^(٤).

لأنهم صفوة الله من خلقه، كما أخبر الله في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ۝﴾ (آل عمران: ٣٣).

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١١١/٣).

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام، (٣٦/١ - ٣٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (١٧١/٨) رقم الحديث (٤٤٨٧).

(٤) انظر: لوامع الأنوار، للسفاريني، (٣٠٣/٢ - ٣٠٥).

وقال عن موسى ﷺ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلَوُضَعُ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩) وقال عن عدد من رسله: ﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٧) وقال عن جميع رسله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج: ٧٥).

فهذه الأمة تؤمن وتعتقد أن رسل الله وأنبيائه أفضل الخلق وأطهرهم وأزكاهم، وأنهم منزهون عن الدنيا مبرؤون من كل سوء صادقون في أقوالهم، قدوة وأسوة في أفعالهم وأعمالهم، لا يأتون منكراً ولا يقولون زوراً، ولا يستحقون ذمّاً ولا يستوجبون عقاباً، أمرنا الله بالاعتداء بهم واتباع هديهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَتْهُ قُلُوبُهُمْ لَا تَسْمَعُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٨٩-٩٠).

وترى محبتهم واجبة، ونصرتهم لازمة؛ لذلك كان نبيها ورسولها محمد ﷺ، أحب إليها من النفس والمال، والولد والوالد، كما جاء في الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(١).

ولما أخذ رسول الله بيد عمر بن الخطاب وقال له عمر: يا رسول الله، لآنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنه الآن والله لآنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»^(٢).

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقدون النبي ﷺ بأموالهم وأنفسهم، فكان منهم من يقيه بجسده وقع السهام والنبال كما صنع أبو دجانة^(٣) رضي الله عنه في غزوة أحد^(٤). ولم يخذلوه قط أو يتخلفوا عن نصره والقتال بين يديه، حتى قال قائلهم يوم بدر وهو

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ (٥٨/١).

(٢) البخاري، الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٥٢٣/١١)، رقم (٦٦٣٢).

(٣) أبو دجانة هو: سماك بن خرشة، متفق على شهوده بدرًا، وكان ممن ذب عن النبي ﷺ يوم أحد، استشهد باليامة، انظر: الإصابة، (٥٨/٤).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٨٢/٢).

المقداد بن عمرو رضي الله عنه ^(١): «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق؛ لو سرت بنا إلى برك الغماد ^(٢) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه...» ^(٣).

يرى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا الموقف العظيم من المقداد رضي الله عنه مشيداً به متمنياً أن يكون هو صاحبه فيقول: (شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً؛ لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ^(٤) أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره، يعني قوله ^(٥).

وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه ^(٦) في هذا المقام: (... فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله بقول سعد ونشطه ذلك...) ^(٧).

فتأمل موقف هذه الأمة من نبيها، وانظر أي بون بينه وبين موقف قوم موسى عليه السلام في قولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) أو موقف

(١) هو المقداد بن عمرو الكندي، شهد بدرًا والمشاهد بعدها، وكان فارساً يوم بدر، مات سنة (٣٣هـ)، في خلافة عثمان. انظر: ابن حجر، الإصابة (٣/٤٥٤).

(٢) هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن، وقيل: موضع في أقصى أرض هجر، وقيل: أقصى حجر باليمن، الحموي، معجم البلدان (١/٣٩٩ - ٤٠٠).

(٣) ابن هشام، السيرة، (١/٦١٥).

(٤) عدل به: أي وزن به، والمراد المبالغة في عظمة ذلك المشهد، انظر: فتح الباري (١/٢٨٧).

(٥) البخاري: كتاب المغازي، باب قوله: ﴿إِذْ تَسْتَفِثُونَ رَبَّكُمْ﴾ (٧/٢٨٧).

(٦) هو سعد بن معاذ بن النعمان سيد الأوس، شهد بدرًا، ورمي بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني قريظة، ثم انتقض جرحه فمات، وذلك سنة خمس. انظر: ابن حجر، الإصابة، (٢/٣٧).

(٧) ابن هشام، السيرة، (١/٦١٥).

النصارى الذي أسلموا نبينهم لأعدائهم ليقتلوه ويصلبوه بزعمهم، وتأمّر بعض تلاميذه وحواريه عليه، كما تقدم بيان ذلك في فعل القوم من أنبيائهم.

الأمر الثالث: أنهم لم يغفلوا فيهم أو يفرطوا في مدحهم بالباطل: وإنما قدرهم حق قدرهم، وعزروهم ونصروهم، وأحبوهم، وعظموهم وأجلّوهم غاية التعظيم والإجلال، ولم يفرطوا في مدحهم ولم يبالغوا في إطرائهم والثناء عليهم ولم يجاوزوا الحد في ذلك، ولم ينزلوهم فوق المنزلة التي أنزلهم الله إياها، ولم يرفعوهم فوق المقام الذي لهم، فلم يجاوزوا بهم منزلة الرسالة والنبوة ومقام العبودية لله، وهما المقام والمنزلة التي أنزلهم الله إياها وأقامهم فيها وخاطبهم وذكرهم بها في كتابه العزيز^(١) فقال عن نوح: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا شَاكِرِينَ﴾ (الإسراء: ٣). وقال عن داود عليه السلام: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ١٧).

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠) وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ عَلَيَّ وِعْدًا﴾ (ص: ٤١) وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (ص: ٤٥) ثم قال عن عيسى عليه السلام: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: ١٧٢).

وقال عن خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١) وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (النجم: ١٠).

فمقام الرسالة والعبودية هو المقام الذي شرف به عباده المرسلين ومنّ عليهم به، وهم صلوات الله وسلامه عليهم يابون أن يرفعوا فوق ذلك، وينهون أممهم عنه ويحذرونهم من مجاوزة هذا المقام، ويقول في هذا المصطفى ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢).

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٨٢ - ٢٨٣).

(٢) البخاري: أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ (٤٧٨/٦).

فالأنبياء والمرسلين بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويتزوجون النساء، ولكثير منهم بنون وحفدة وليسوا بآلهة ولا أبناء الله، كما ضل النصارى في عيسى عليه السلام، يقول الحق تبارك وتعالى على لسان محمد ﷺ مقررًا هذه الحقيقة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ (الكهف: ١١٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ (الرعد: ٣٨) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠).

فهذه منزلة الرسل والأنبياء كما جاءت في القرآن لا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير، فآمنت بها أمة الإسلام، فرسل الله عبيد لا يعبدون، ورسل لا يكذبون؛ بل يطاعون ويتبعون.

* * *